

عندما شاهدتُ فيلم «آخر الرجال المحترمين» عند عرضه في منتصف ثمانينات القرن الماضي، تصورت للوهلة الأولى أنه نسخة جديدة من أفلام الوعظ الأخلاقي القديمة التي اشتهر بها بعض الفنانين، خاصة الراحل حسين صدقي الذي نذر لنفسه هذا النوع من الأفلام.

كانت تلك المرة الأولى التي شاهدتُ فيها فيلماً للمخرج الكبير سмир سيف، الذي رحل قبل أيام، في وقت بدأت نظرتي إلى السينما تختلف، واهتمامي بها ينتقل من حالة المشاهد الذي يرغب في الاستمتاع بفيلم جيد، إلى حالة المتأمل المعنى بمحتوى هذا الفيلم والإبداع الفني فيه.

لم يخل فيلم «آخر الرجال المحترمين» من وعظ أخلاقي، ولكن بطريقة مبدعة، إذ قدم الفنان الراحل نور الشريف شخصية مدرس مثالي يظهر مدى احترامه لعمله، وحرصه على تلاميذه، خلال رحلة يصحبهم فيها من مدرستهم في إحدى بلدات الصعيد إلى القاهرة لزيارة حديقة الحيوان.

لكن الفيلم دخل، في نهايته، في مساحة أبعد عندما حاول صانعه تقديم تصور للطبيعة الإنسانية، ملخصه أن الخير هو الأصل في الإنسان، بينما الشر دخيل عليه. دفعني هذا التصور إلى البحث في مسألة الطبيعة الإنسانية، والتوسع في الإطلاع على كتابات فلسفية بشأنها، والمقارنة بينها. وقادني هذا البحث إلى اقتناع بأن الكائن البشري يحمل في داخله ما

يمكن أن يجعله إنساناً، أو يحوله إلى وحش، وفقاً لتكوينه والظروف التي تحيطه.

وهكذا تكون السينما حافزاً للتفكير حين تدفع إلى التأمل، وتقدم إبداعاً فنياً وليس عملاً تجارياً في المقام الأول. لكن الراحل الكبير سمير سيف نجح في تقديم فن سينمائي جميل وبديع، ورائج تجارياً، في آن معاً، بخلاف الأفلام التي تحقق رواجاً الآن. وهذه إحدى إنجازاته التي تعود إلى قدرته على توظيف مهاراته الإبداعية في تقديم أعمال تحقق نجاحاً تجارياً، وهو ما لم يقدر عليه مخرجون كبار آخرون عمل مساعداً لبعضهم في بداية حياته العملية، مثل الراحل العظيم يوسف شاهين.

ويعود تميز سمير سيف هذا إلى ثقافته التي تجاوزت الإخراج السينمائي وما يتعلق به، وبحثه المستمر عن أفكار جديدة يقدمها. ولذا، سيبقى حاضراً وملهماً بأعماله المميزة.